﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٤﴾ [القصص: 84]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

زيادةُ إيضاحٍ وبيان؛ للتَّأكيد على عظيم اللُّطفِ والامتنان

لمّا ذكر سبحانه محلَّ الجزاء، وذكر أنَّه جعلَه لعباده الخلَّصِ الأتقياء؛ أكَّد ذلك بذكر وعدِ المحسنين، ووعيدِ المسيئين؛ فأخبرَ سبحانه أنَّ جزاءَ الحسنة عشرةُ أضعافها وتزيدُ إلى سبعمائة ضعف؛ ثمَّ يزيدُ الأجر إلى ما لا يحيط به إلّا علّام الغيوب، فضلًا من الله ورحمة، وأخبر كذا أنَّ السَّيِّئة بمثلها، لطفًا منه بعباده، وشفقةً عليهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَلَا يُجۡزَى﴾: أصل (جزي) يدلُّ على قيام الشَّيء مقامَ غيره، ومكافأته إيّاه[2]. والجزاءُ: الغَناء والكفاية والمكافأة على الشَّيء[3]. والجزاء: ما فيه الكفايةُ من المقابلة، إنْ خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرٌّ[4]. يقال: جزيتُه بما صنعَ، وعلى ما صنعَ جزاءً، وجازيتُهُ مجازاةً، بمعنى واحد[5]. والجزاءُ يكون ثوابًا ويكون عقابًا، والجزاء أيضًا: القضاءُ، يقال: جَزيتُ فلانا حقَّه؛ أي: قضيته. قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [البقرة: 48]؛ أي: لا تقضي ولا تنوبُ نفس في يوم القيامة عن نفس شيئا[6]. والمقصودُ بالجزاء في الآية: العقوبة، أي: يُعاقَبُ عاملُ السيّئة بما يليقُ بعمله[7].

(1) الدرّة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 7/ 124، والمراغي، تفسير القرآن: 20/ 102.
(2) ابن فارس، المقاييس: (جزي).
(3) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (جزي).
(4) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جزي).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (جزي).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (جزي).
(7) القرطبي، أحكام القرآن: 13/ 320.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يرشدُنا المولى ﷻ في هذه الآية الكريمة إلى تمامِ فضلِه وعدله، ومضاعفةِ ثوابه وأجره؛ حيث يقول سبحانه: مَنْ جاء اللّهَ يومَ القيامة بالحسنة المتمثِّلة بالتَّوحيد والإخلاص وجميع ما أمر الله به ورسوله مِنْ فعل الخيرات وترك المنكرات - فله ما هو أعظمُ منها في الثَّواب والجزاء، وهو الجنَّةُ والنَّعيمُ الدّائمُ - ومَنْ جاء بالسَّيِّئة وهي الشِّركُ وما نهى عنه الشّارع سبحانه نهيَ تحريم، فلا يثابُ الَّذين عملوا السَّيِّئات مِنَ الشِّرك والمعاصي إلّا مِثْلَ ما كانوا يعملون مِنَ السّوءِ والقُبْحِ[1].

يجازي الله بالإحسان إحسانًا، وبالإساءة عقوبةً وحرمانًا

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصل الآية عن سابقتها:

فصلَ النظم الكريم قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ عن سابقه؛ لأنَّ جملة ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ تتنزّلُ منزلةَ بدلِ الاشتمال لجملةِ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ لأنَّ العاقبة ذاتُ أحوالٍ من الخير، ودرجاتٍ من النَّعيم، وهي على حسب ما يجيء به المتَّقون من الحسنات، فتتفاوتُ درجاتهم بتفاوتها، وكذا الأمرُ في جانب المجرمين المسيئين، تتفاوتُ عقوباتهم[2]؛ فبينَ الجملتين كمالُ اتِّصال. وقيل هي كلامٌ مستأنَفٌ مسوقٌ لبيانِ وعدِ المحسنين، ووعيد المسيئين بعد ذكر أنَّ العاقبة للمتَّقين[3]. وبناءً على التوجيه الأول تكونُ الجملةُ الأولى بدلَ اشتمال ممّا قبلها وهي المقصودة أصالةً، وعُطف عليها وعيدُ المسيئين استطرادًا واستكمالًا. وعلى التوجيه الثاني أنه بعد أنْ بيّن أنَّ ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، أراد أنْ يُطمئِنَ غيرَ الكاملينَ في التقوى

الفصلُ للبدليَّة، وبيانِ منزلة المتَّقين العليَّة، وعدالةِ العقوبات الإلهيَّة

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 345، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 625.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 191.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 391.

ممَّن عمِل حسنات وسيئات معًا؛ ما بالُهُم وكيفَ التعاملُ معهم؟ فبين أنَّ مَن جاء بالحسنة فله خيرٌ منها، ومن جاء بالسئية فيعاقبُ بقَدْرِها عدلًا منه ورحمةً بالعصاة، فتركُ الوصل حينئذٍ لشبه كمال الاتصال؛ إذ هي جوابٌ أفرزه قوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

نكتة بناء الآية على أسلوب الشرط:

التعبير بالشرطيَّة؛ لبيان أسباب الوصول إلى المنازل المرضيَّة والشقيّة

بنيت الآية على أسلوب الشَّرط في قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾؛ للرَّبط بين فعل الحسنة ومضاعفةِ أجرها، وفعلِ السَّيِّئة وبيان عقابها، وبيانِ التَّلازم بين جملتي الشَّرط والجواب؛ حيثُ ينزّلُ الشَّرط مع الجزاء بمنزِلَة العلَّة مع المعلول[1]. ويضاف إلى ذلك ما يدلُّ عليه التَّعبير باسم الشَّرط ﴿مَن﴾ من العموم، ذلك أنَّ أسماء الشَّرط وأدواته من جملة الطَّرائق التي يستفاد منها عمومُ الخطاب؛ أي: إنَّ حكمَ المجيء بالحسنة والسَّيِّئة وما يترتَّب عليهما من ثوابٍ وعقاب يشملُ جميعَ الخلائق، وليس خاصًّا بأناسٍ معيَّنين؛ فكلُّ فاعلٍ للحسنة يلقى الخيرَ العميم، ويرى أنواعًا من النَّعيم، وكلُّ فاعل للسَّيِّئة يلقى كذلك جزاءَ ما فعله دون مضاعفةٍ للسَّيِّئة لطفًا من ربِّ العالمين دون النظر إلى جنسٍ أو رتبة. واللّه ذو الفضل العظيم لا يظلمُ النّاس شيئًا.

سرُّ إيثار التَّعبير بالمجيء دون العمل مثلًا:

في المجيءِ بالعملِ تحتّمُ العَوْد ليومِ العرْض

أوثر التَّعبير بالفعل ﴿جَآءَ﴾ في قوله تعالى: ﴿جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾، وقوله تعالى: ﴿جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ دون (مَن عمل حسنة) ونحوه؛ لأنَّ المجيءَ هو حضورُ الجائي من حيثُ كانَ إلى مكانٍ لأمرٍ ما، ويقال: جاء بكذا: استحضره[2]. وفيه دلالةٌ على تحقُّق الحضور والعَوْد إلى اللّه تعالى للحساب والجزاء؛ ولم يعبِّر بالعمل للحسنات والسّيئات

(1) ابن هشام، رسالة المباحث المرضيّة، ص: 64.
(2) الراغب، المفردات، وجبل، الاشتقاقي: (جاء).

كأن يقول: (ومن عمل الحسنة فله خير منها)؛ لأنَّ ذلك الفعلَ مناسبٌ للحياة الدنيا، التي هي مكانُ العمل، في حين أنَّ السّياق بأكملِه يتحدّثُ عن الدار الآخرة والعاقبة، وذلك يستدعي المجيءَ إلى ذلك المكانِ لغرضِ الحسابِ والجزاء، فالمرادُ: مَن حضرَ بالحسنة، ومَن حضر بالسَّيِّئة يومَ العَرْض على الحساب[1].

معنى (الباء)، و(أل) في قوله: ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾:

لا ظُـلْـمَ يـومَ القيامة

عبَّر النظمُ الكريم في قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ بالباءِ الجارّة وأل المعرفة في ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾، والأصلُ في معنى (الباء) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[2]. وهو بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾؛ أي: حضر يوم القيامة هو مع عمله كهيئةِ الملتصق به، المصاحِب له[3]، فالذي يقبضُ على الحسنة؛ فله الحسنى وزيادة، والذي يقبضُ على السيّئة يلقى يومَ الحساب جزاءَه. وأما (أل) في ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ فهي للجنس، لعموم كلِّ حسنة ممّا يحبُّه الله ويرضاه، فالاستغراق فيها استغراقٌ عرفيٌّ لكلِّ حسنةٍ استوفت شرطَي القبول من الإخلاص والمتابعة، فلا يظلمُ الجائي بأيّةِ حسنةٍ صدرَتْ منه صغيرةً كانت أوْ كبيرةً؛ لأنّه المسؤولُ عنها كما يدلُّ عليه المجيء بها. وكذا الكلامُ في جانب السيئة.

بلاغةُ الاستعارة التمثيليَّة:

مصاحبةُ الجائي للحسنات تشبيهٌ للمعنويِّ بالحسيّات

عبَّر النظمُ الكريم بالاستعارة التمثيلية في قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾؛ إذ الحسنةُ من حيثُ هي ثوابٌ على العملِ لا يحملُها صاحبُها ويجيءُ بها؛ لأنها أمر معنويٌّ، بل أُريد تشبيهُ حال الجائي وقد أصاب ثوابًا على أعماله الصالحة بحالِ مَن يأتي حاملًا متاعًا، وفي هذا تنزيل للمعنويات بثياب الحسيات توضيحًا لاستصحاب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 191.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/ 195.

الإنسان ثواب أعماله يومَ العرض. ويجوز حملُ المجيء على حقيقته، أي: مجيءٌ إلى الحساب، على أنْ يكون المراد بالحسنة محلَّها، أي: يجيءُ بكتابها في صحيفةِ أعماله.

بلاغة الطِّباق في الآية:

الطباق إبرازُ المعنى وتوضيحُه

جاء الطباق في الآية بين لفظَي ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ و﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ وهو من المحسِّنات البديعيَّة، ليُضفي على الجملة جمالًا ويزيدها بهاءً وبيانًا؛ حيث إنَّ ذكر المتضادّات يساعدُ على إبراز المعنى ويزيدُه وضوحًا؛ فالعرب: تقول: (والضِّدُّ يُظهِرُ حُسنَه الضِّدُّ)، وتقول كذلك: (وبضدِّها تتميَّز الأشياء)؛ فوجود السَّيِّئة مشعِر بمعنى الحسنة وقيمتِها ومكانتِها، والعكسُ بالعكس. وفي هذا بيانٌ لأقسام النّاس يوم القيامة، عن طريق هذه المقابلةِ بين الجزاءين، فالنّاس إمّا محسنٌ وإمّا مسيءٌ، وبيانٌ لفضل الله تعالى في مكافأة المحسِن، وعدلِه في معاقبةِ المسيء.

معنى (اللّام) في قوله: ﴿فَلَهُۥ﴾:

اللّام لإفادة الاستحقاق؛ فهو الفائز يوم التّلاق

عبَّر النظمُ الجليل عن جملةِ جوابِ الشرط بجملةٍ اسميَّةٍ جرى فيها تقديم الخبر، وهو جارٌّ ومجرور في قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ والأصل في معنى (اللّام) أنَّه موضوع للدَّلالة على الاختصاص، وذلك إمّا بالملكيَّة أو بغيرها[1]. و(اللّام) في قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥ﴾ للاختصاص الذي يفيدُ الاستحقاقَ بعد تفضُّل الله سبحانه وبحمده؛ أي أنَّ الذي يجيء بالحسنة هو المخصوصُ بالأجر العظيم، المستحقُّ للخير العميم.

نكتة تقديم الخبر ﴿فَلَهُۥ﴾:

تكريمُ أهل الحسنات، وتخصيصهم بالنَّعيم في روضات الجنّات

قُدِّم شبهُ الجملة الخبر ﴿فَلَهُۥ﴾ على المسند إليه ﴿خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾؛ اهتمامًا بالمقدَّم، وتشويقًا للمؤخَّر،

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 479، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 64.

وفي هذا تشريفٌ لمَن يأتي يوم القيامة بالحسنات، والأعمال الصّالحات، حيث يقدَّم ويكرَّم فينال الثَّواب الجزيل، والمكانة العليَّة في جنَّة ربِّ البريَّة ﷻ. ويصحُّ أن يكون التَّقديمُ للتَّخصيص حملًا على العموم في لفظ ﴿مَن﴾، فيكون المعنى تخصيص أصحاب الحسنات بالنَّعيم في روضات الجنّات.

نكتةُ تنكيرِ المبتدأ:

جاءتْ كلمةُ ﴿خَيْرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ نكرةً؛ لإفادة التَّعظيم؛ أي: إنَّ كلَّ حسنة تحتوي على خيرٍ لا محالةَ يصلُ إلى نفس المحسِن أوْ إلى غيره، فللجائي بالحسنة خيرٌ أفضل ممّا في حسنتِه من الخير، أوْ فله من اللّه إحسانٌ عليها خيرٌ من الإحسان الَّذي في الحسنة وأكثرُ منه، وقد قال تعالى في آيات أخرى: ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، أي: فله من الجزاء حسناتٌ أمثالها، وهو تقديرٌ يعلمه اللّه ﷻ[1].

تنكير (خير) للتَّكثير والتَّعظيم؛ لبيان ما أُعدَّ من النَّعيم المقيم

معنى (مِن) في قوله: ﴿مِّنْهَا﴾:

الأصل في معنى (مِن) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على ابتداء الغاية[2]، وهو بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾؛ أي: له خيرٌ بحسب حسنتِه كائنٌ ابتداءً من فعله إيّاها إلى أن يُكافأ بها[3]. وفي هذا إعلاءٌ لشأن الحسنة وتكريمٌ لها حيثُ يشمل خيرُها صاحبَها منذ أن يهمَّ بعملِها حتَّى يلقى اللّه تعالى بها.

الدَّلالةُ على ابتداء الغاية؛ لبيان فضلِ الإحسان والهداية

نكتةُ عطفِ مَن جاء بالسيّئة:

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ على سابقِه؛ استيفاءً لأقسامِ مجيءِ النّاس بالعمل يومَ القيامة، فإمّا جاءٍ بالحسنات، وإمّا جاءٍ السَّيّئات، وليس ثَمَّ ما يُجاء به يوم القيامة غيرُ هذين:

العطفُ لاستيفاءِ الأقسام، وبيانِ ما يؤولُ إليه الأنام

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 191.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 459، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 75.
(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 4/ 302.

الحسنات والسَّيِّئات. وهذا ما يُعرف في علم البديع بـ(التَّقسيم)[1]. وممّا حسَّن الوصلَ بين الجملتين وجودُ المغايرة بينهما؛ فليس مَن يجيء بالحسنة يوم القيامة كمَن يجيء بالسَّيِّئة؛ فلكلٍّ منهما جزاءٌ معلوم كما أوضحت الآية الكريمة. هذا مع وجود التَّلاؤم الفكريّ بين الجملتين الكريمتين، واتِّفاقهما الخبريّة، وكونهما اسميَّتين.

معنى (الباء)، و(أل) في قوله: ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾:

إفـادةُ أنَّ كـلَّ مـسيء مجازًى بما كان يحملُه يومَ القيامة معَه

(الباء) حرف جرٍّ موضوعٌ في الأصل للدَّلالة على الإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[2]. وهذا هو معناه في قوله تعالى: ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ حيث دلَّ على الإلصاق الذي يفيد المصاحبة؛ أي: جاء ملتصقًا بسيِّئته، مرهونًا بها، مصاحبًا لها. وأمّا (أل) في ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ فهي التي لاستغراق أفراد الجنس؛ لتشمل كلَّ سيِّئة من صنوف السَّيِّئات. وفي هذا دليلٌ على كمالِ عدل الله سبحانه، والتركيبُ يحتملُ التمثيلَ والحقيقةَ كما سبق بيانُه قبلُ.

سرُّ إيثار النَّفي بـ(لا):

(لا) في النَّـفي آكـد، ولِمـا في لفظها مِن طول ومَـدّ؛ طـال النَّفي بها واشتدّ

أوثر النَّفي بـ(لا) دون (لن) في قوله: ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ﴾؛ لأنَّ النَّفي بـ(لا) آكدُ من النفي بـ(لن)؛ فالنَّفي بـ(لا) قد يكون جوابًا للقسم، والنَّفي بـ(لن) لا يكون جوابًا له، ونفيُ الفعل إذا أُقسم عليه آكد[3]. كما أنَّ النَّفي بـ(لا) أبلغُ من النَّفي بـ(لن)؛ حيث إنَّها أدلُّ على دوام النَّفي وطولِه مِن (لن)، فهذه الأخيرة لنفي الفعل فيما يُستقبَل، كما أنَّ (لم) لنفيه في الماضي، أمّا (لا) فلإطلاق نفيه، وأنَّها لِما في

(1) "التقسيم هو أن يذكر المتكلِّم شيئًا ذا جزأين فصاعدًا، ثمَّ يضيف إلى كلّ واحد من أجزائه ما هو له عنده، واشترط فيه البديعيُّون أن يستوفي أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه، فلا يغادر منه قسمًا، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفًا وَطَمَعًا﴾ [الرعد: 12] وهذا أحسن تقسيم، لأنَّ النّاس عند رؤية البرق بين خائف وطامع ليس فيهم ثالث". يُنظر: أحمد شعيب، بحوث منهجيَّة في علوم البلاغة العربيَّة، ص: 380.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.

(3) المرادي، توضيح المقاصد والمسالك: 3/ 1229.

لفظها مِن طول ومَدّ؛ طال النَّفي بها واشتدّ[1]. وهذا التَّوكيد مناسبٌ لما أُريد من الآية، فإنَّ بعض النّاس قد يتشكَّكون في أمرِ أنّ الله سبحانه لا يجازي بالسَّيِّئة إلّا مثلها، ويحاولُ الشَّيطان أن يُؤيِسَهم من رحمةِ ربِّهم، فيعظِّم في أعينهم ذنوبهم، فجاءَ تأكيدُ النَّفي ردًّا على ذلك.

نكتةُ التَّعبير عن جوابِ الشرط بالفعليّة:

أوثر التَّعبير بالجملة الفعليَّة في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ﴾ بدلًا من التَّعبير بالجملة الاسميَّة، كما سبق في قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ﴾؛ لأنَّ مِن دلالات الجملة الفعليَّة التغيُّرَ وعدمَ الثُّبوت خلاف الجملة الاسميَّة، فجيء بها هنا؛ لبيان أنَّ الجزاءَ قد يتغيَّر وفقَ تقديره ولطفِه ﷻ؛ فقد يخفِّف سبحانه عن بعضِ المسيئين هذا الجزاءَ الذي يستحقّونه يوم القيامة. وقد جيءَ بالجملة الاسميَّة مع من يجيءُ بالحسنة للدَّلالة على الثُّبوت، فالحسنة بعشر أمثالها وتزيدُ.

أوثر التَّعبير بالجملة الفعليَّة؛ لبيان عظيم الرَّحمة الإلهيَّة

نكتةُ بناءِ الفعلِ للمفعول:

حُذِف الفاعل وبُنِي الفعل للمفعولِ في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ للعلْم بالفاعل وهو الله ﷻ، وكذا لجذبِ الانتباه، وجعلِ الاهتمام منصبًّا على المفعول، وهو الجزاءُ المماثلُ لما عمِلَه. وثَمَّ ملمحٌ آخر، وهو أنَّ عادةَ القرآن أنَّ ما كان من خيرٍ فإنَّه يُصرَّح بنسبته إلى الله سبحانه وبحمده، وما كان من شرٍّ فإنَّه لا يُصرَّح بنسبته إليه؛ ومن أشهر الأمثلة على ذلك قوله: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾ [الجن: 10]. فبُني فعل الإرادة للمفعول مع ذِكر الشَّرّ: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجن: 10]، وأُسنِد للفاعل مع ذِكر الرَّشَد: ﴿أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾ [الجن: 10]. وكذا الأمر في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ

بُني الفعل للمفعول؛ للاهتمامِ بما إليه يؤول

(1) الزَّركشي، البرهان: 2/ 420، وابن القيِّم، التفسير القيِّم: 1/ 593.

عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، فمع ذكرِ الجزاء على السَّيِّئة - وهو العقاب بالنّار - بُنِي الفعل للمفعول.

نكتة التَّعبير بالموصول وصِلَتِه:

التَّنبيه على العلَّة الموجِبة للحُكم، والأسباب الجالبة للعقوبةِ بعدَ الإثم

التَّعبيرُ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وصلَتِه ﴿عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ للتَّسجيل عليهم من أوَّل الأمر، وللتَّنبيه على العلَّةِ الموجبةِ الجالبة للشَّقاوة والتَّعاسة لهم، وهي كونهم عاملينَ للسَّيِّئات؛ وفيه زيادةٌ في التَّقرير، وتوبيخٌ لهم وتحقير.

نكتة الإظهار بالموصوليَّة في مقام الإضمار:

تهجينُ العمل المشين، وتبغيضُ السَّيِّئة إلى قلوبِ السّامعين

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هو عين قوله: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾؛ فالمقامُ مقامُ إضمار؛ والأصلُ أن يقال: (ومن جاء بالسَّيِّئة فلا يُجزَون... إلخ)، لكنَّه عدلَ عن مقتضى الظّاهر لفوائدَ، منها: التَّسجيلُ عليهم بالذَّمّ بعمل السَّيِّئات، وبيانُ العلَّة في الحكم، وبيانُ أنَّهم أهلٌ لهذا الوصف، وإفادةُ العموم ليشملَ كلَّ مَن تلبَّس بهذا الفعل، وتنشيطُ ذهنِ السّامع وتنبيهُه، وتكرارُ إسنادِ عمَل السَّيِّئات إليهم؛ لقصد تهجين هذا العملِ المشين، وتبغيضِ السَّيِّئة إلى قلوب السّامعينَ مِن المؤمنين[1].

دلالةُ التَّعبير بـ﴿عَمِلُواْ﴾ مادّةً وصيغةً:

التعبير بالماضي يفيد التَّحقيق، وهو بتوكيد الفعل حقيق

وردَ الفعلُ الواقعُ في جملةِ الصِّلة ماضيًا في قوله تعالى: ﴿عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ لإفادةِ تحقُّقِ الوقوع، وكأنَّه قد وقع تأكيدًا له، وأوثر التَّعبير بالفعل ﴿عَمِلُواْ﴾ دون (جاؤوا)؛ إشارةً إلى أن ما يُجزونَ به ما كان عن قصد[2]، وللتَّنبيه على أنَّ عملَهم هو علَّة جزائهم؛ زيادةً في التَّنبيه على عدلِ الله ﷻ[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 330، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 191.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 332.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 191.

معنى (أل) في ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ونكتة جمعها:

(أل) جنسيَّة؛ لإفـادة عـموم السَّيِّئات الرَّديَّة

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هي (أل) الجنسيَّة؛ جاءت لإفادة العموم، واستغراقِ جميعِ أفراد الجنس[1]. وجاءت الكلمة بلفظ الجمع؛ لإفادة أنَّها تشملُ جميعَ أنواعِ السَّيِّئات[2].

علَّة إيثار القصر نفيًا واستثناءً:

بيان كمال عدله سـبـحـانـه في السَّلب ورحمتِه في العطاء

أوثر القصر بالنَّفي والاستثناء في قوله: ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ لأجل ما في صيغته من تقديم جانب النَّفي اهتمامًا به، وإظهارًا للعدل الإلهيّ، فالحصرُ حقيقيٌّ، وليس في الحصر الحقيقيّ ردُّ اعتقاد، بل هو إخبار عمّا في نفس الأمر؛ ولذلك كان يساويه أنْ يقال: (ومن جاء بالسَّيِّئة فيجزى مثلها)، لولا الاهتمام بجانب نفي الزِّيادة على المماثلة. ونظيره قول النَّبيّ ﷺ حين سألته هند بنت عتبة ﵂ فقالت: إنَّ أبا سفيان رجل مِسِّيك، فهل عليَّ حرجٌ أن أُطعِم مِن الذي له عيالَنا، فقال لها: «لا، إلّا بالمعروف»[3]، ولم يقل لها: أطعميهم بالمعروف، وقد جاء على هذا المعنى قول النَّبيّ ﷺ: «وإنْ همَّ بسيِّئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همَّ بها فعملها كتبها الله سيِّئة واحدة»[4]؛ فأكَّدها بواحدة تحقيقًا لعدم الزِّيادة في جزاء السَّيِّئة[5]. وهذا التَّأكيدُ يناسبُه مجيءُ القَصْر في ثوب النَّفي والاستثناء؛ لأنَّه - أي: القصر بالنَّفي والاستثناء - يكون غالبًا فيما ينكرُه المخاطَب[6]. فكأنَّه لمّا ذُكِر أنَّ ثوابَ الحسنة خيرٌ منها، وأنَّها تُضاعَف إلى عشر أمثالها،

(1) الماوردي، النُّكت والعيون: 2/ 193.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 373.
(3) الحديث متَّفق عليه من حديث أم المؤمنين عائشة ﵂، أخرجه البخاريُّ في صحيحه، برقم: (5359)، وأخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (1714).
(4) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (131) من حديث ابن عبّاس ﵄.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/ 196.
(6) السامرائي، معاني النحو: 2/ 250 - 251.

إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة - ظُنَّ أنَّ السَّيِّئة كذلك، فجيءَ بالقصر نفيًا واستثناءً لتأكيدِ خلافه، فضلًا من اللّه ورحمةً.

دلالة التَّعبير بالموصول ﴿مَا﴾ وصلته:

جاء التَّعبير بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ وصلتِه في قوله تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ للتَّنبيهِ على العلَّة الموجِبة الجالبة للشَّقاوة بالإيماء دون التَّصريح؛ لاستقباح ذكره؛ وفيه زيادةٌ في التَّقرير، وإهانةٌ لهم وتحقير. وفيه أيضًا مزيدُ بيان وتأكيدٍ للعدل الإلهيّ العظيم، لأنَّه لما قال اللّه سبحانه: ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ بيَّن أنَّ جزاءهم إنَّما هو بما كسبتْه أيديهم، وأنَّهم - بعصيانهم وعدوانهم - قد أوقدوا لأنفسهم النّار التي يصلوْنها يوم القيامة، فيقال لهم توبيخًا وتبكيتًا وتحسيرًا: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢﴾ [آل عمران: 182]. وإنَّ مجيءَ هذه الآية بعد قصَّة قارونَ فيه مزيدُ بيانٍ لمدى جُرمه مع عدل اللّه تعالى معه، كيلا يَستشنع أحدٌ عقوبةَ الخسف التي حلَّت به، فقد استحقَّها ببغيه وعدوانه، وفجوره وعصيانه، وما عاقبه اللّه تعالى على سيِّئته بأكثرَ منها، بل بمثلها، و﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ [فصلت: 46].

التَّنبيهُ على العلَّة الموجبة، والأسبابِ الجالبة

نكتة التَّعبير بفعل الكون ماضيًا:

التَّعبيرُ بالكون الماضي في قوله تعالى: ﴿كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ يفيد أنَّ عملهم هذا ليس طارئًا عليهم، بل قاموا به بجميعِ هِمَمِهم حتى خالط أنفسَهم وصار كالسجيَّة لهم؛ ففيه إصرارٌ وعنادٌ، ونسيانٌ للمعاد.

تنزيلٌ للإثم منزلة السَّجيَّة، وبيانٌ هوانه على النُّفوس العصيَّة

دلالة التَّعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

جاء التَّعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾؛ لإفادة تجدُّد الحدوث واستمراريَّته، مع استحضار الصورة في ذهن المستمع؛ فكأنَّه يشاهدها بعينه. وفي التَّعبير بالمضارع كذلك مبالغةٌ في المثليَّة[1]؛ أي:

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 374.

إنَّه يفعل بهم في الآخرة مثل الذي فعلوه في الدُّنيا، ونلحظُ أنَّه قد جمعَ بينَ صدورِ العملِ منهم ماضيًا وصدوره منهم مُضارعًا؛ فقال: ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، ولم يقل: (فلا يجزى الذين عملوا السيئاتِ إلا ما عملوه) في الدنيا، بل أدخلَ فعلَ الوجود ﴿كَانُواْ﴾ وحوَّل الفعل مضارعًا لبيان أنَّ الجزاء لما وُجد منهم من عمَلٍ وتحقَّق على سبيل الاستمرارِ والإصرارِ عليه؛ إظهارًا لكمال العدل الإلهي وبيانًا لعظيم الرحمة والشفقة.

إفـادة التَّجـدُّد والاستمرار، مع إحيـاء للصّورة واستحضار

بلاغةُ اجتماع الإيجازات:

في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ إيجازات متعددة، فقد دلّ الاستثناء المفرَّغ عن الفعل ﴿يُجۡزَىٰٓ﴾ المنفيّ المفيد بالنَّفي عمومَ أنواعِ الجزاء، والمستثنى تشبيهٌ بليغ حذف منه المستثنى منه وما دلَّ على التشبيه من المصدر والمشابهة، والتقدير: (فلا يجزى الذين عملوا السيئاتِ وجزاءً إلا جزاءً شبهَ الذي كانوا يعملون)، والمرادُ المشابهةُ والمماثلة في عُرف الدّين؛ أي: جزاءً وفاقًا لما كانوا يعملون، وجاريًا على مقداره لا حيفَ فيه، وذلك موكولٌ إلى العلْم الإلهيّ[1]، فحُذف المثلُ وأقيم مقامَه ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ مبالغةً في المماثلة، وهذا لطفٌ منه ﷻ إذ ضاعفَ لهم الحسنة، ولم يرضَ بزيادة جزاءِ السَّيِّئة مقدارَ ذرَّة. وقيل: لا حاجةَ إلى اعتبارِ المضاف، فإنَّ أعمالَهم أنفسَها تظهرُ يوم القيامة في صورةِ ما يعذّبون به، ولا يخفى ما فيه[2]. أمّا الفعل ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ فقد حُذف منه متعلّقاه، وهو عائد الصِّلة، الضَّمير الواقع في محلّ نصبٍ مفعولًا به ومبيّن الموصول، إذ التَّقدير: (يعملونه من السيئات)، وهذا حذف مطَّرد، وقد حُذف لتقدُّم ما يدلُّ عليه، وهو قوله تعالى: ﴿عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾. وفيه - مع ما سبق - رعايةُ الفاصلة.

الإيـــجـــازُ لـلـمـبـالـغـة في المماثلة، لبيانِ لُطفه سبحانه في المعاملة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 191.

(2) الزمخشري، الكشّاف: 3/ 436، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 19، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 332.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجزاء والثواب:

الـثَّـوابُ من الـرُّجـوع، والجزاءُ من قيام الـشيء مـقـامَ غـيره ومُكافأته إيّاه

(الثاء والواو والباء) قياسٌ صحيحٌ من أصلٍ واحدٍ وهو العَوْدُ والرُّجوع؛ يقال: ثاب يَثوب إذا رجعَ[1]، والمَثابةُ: الموضعُ الذي يُثاب إليه، أي: يُرجَع إليه مرة بعد أخرى[2]. والثَّوابُ: ما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله، ويقال في الخير والشرّ، ولكنَّ الأكثرَ المتعارف في الخير[3]. والمعنى المحوريّ لجذر الثَّواب: رجوعُ الشيء المتفرِّق الذّاهِب، والثَّوابُ من هذا؛ لأنَّ العملَ ذهبَ وهذا عائدٌ مقابلٌ له، كما يقال: عائدُ العمل كذا[4]. وأمّا الجزاءُ: فهو ما فيه الكفايةُ من المقابلة، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرّ[5]. وجذرُ الجزاء يدورُ حول قيام الشيء مقام غيرِه ومكافأته إيّاه[6]. والجزاءُ يكون مُماثلًا للمجزَى عنه؛ لأنَّ أصلَ الجزاء في كلام العرب: القضاءُ والتعويض. يقال: جزيتُه قرضَه ودَينَه أجْزيه جَزاءً، بمعنى: قضيتُه دَينَه. ومن ذلك قيل: جزَى اللّهُ فلانًا عنّي خيرًا أو شرًّا، بمعنى: أثابه عنّي وقضاه عنّي ما لزمَني له بفعلِه الذي سلفَ منه إليّ[7].

والحاصلُ أنّ الثواب لوحظَ فيه معنى العَوْد والرّجوع إلى العامل من عمَلِه، والجزاءَ لوحظَ فيه معنى المقابلةِ والمكافأة، وإن كانا يتَّحدانِ مآلًا.

(1) ابن فارس، المقاييس: (ثوب).
(2) الجوهري، الصحاح: (ثوب).
(3) الراغب، المفردات: (ثوب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ثوب).
(5) الراغب، المفردات: (جزي).
(6) ابن فارس، المقاييس: (جزي).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 1/ 27.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والأربعون،
سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والأربعون، سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 41 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-92-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 41 : المجلد الحادي والأربعون، سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-92-1
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-2914887 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»